يوليوز-غشت-شتنبر 2022

مجلة المناهل

ⵜⴰⵙⵖⵓⵏⵜ ⵏ ⵍⵎⴰⵏⴰⵀⵉⵍ

مجلة فصلية تصدر عن وزارة الشباب والثقافة و التواصل - قطاع الثقافة

ملف العدد :

نظرات على الدراسات المغربية حول أفريقيا



العدد: 106



مجلة فصلية تصدر عن وزارة الشباب والثقافة و التواصل
-قطـــاع الثقافـــة-

ملف العـــدد

نظرات على الدراسات المغربية حول أفريقيا



مجلة فصلية تصدر عن وزارة الشباب والثقافة و التواصل
-قطـــاع الثقافـــة-

السلسلة الجديدة ـ العدد: 106

يوليوز-غشت-شتنبر 2022
الإيداع القانوني: 1974/6
الرقم التسلسلي الدولي القياسي: 0851/0253
التصميم والطباعة: مطبعة دار المناهل: Tél: +212 5 37 77 15 16
Email: contact.idam@minculture.gov.ma
لوحة الغلاف: إنجاز محمد الذهبي، مطبعة دار المناهل
العنوان البريدي للمجلة: 1 زنقة غاندي ـ الرباط
العنوان الالكتروني للمجلة: r.manahil 2019@gmail.com
الهاتــــف: +212 5 37 27 40 90 / +212 5 37 27 40 91
الفاكــــس: +212 5 37 27 40 93

الفهـــرس

أولا: ملف العدد: نظرات على الدراسات المغربية حول أفريقيا

إعداد وتنسيق **فاطمة الحراق**

ثانيا: نصوص مترجمة

ثالثا: مقالات متنوعة

رابعا: دراسات وقراءات في كُتب

مجلة المناهل، العدد 106 (يوليوز- غشت- شتنبر 2022): 402-415

الحياة الفكرية والدينية بسوس خلال القرن 19م
من خلال قراءة في كتاب "نزهة الأبصار"، للعربي المشرفي

جواد التباعي والزهيد علوي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين، جهة فاس مكناس

شغل البحث في تاريخ المجتمع السوسي حيزا هاما من اهتمامات الباحثين والمهتمين بالتاريخ المغربي بصفة عامة، إذ تعددت زوايا النظر وظل الموضوع واحدا. فتم تناول تاريخ سوس من زاويا متعددة مثل التصوف، والاقتصاد، والرحلات، ومن زاوية العلاقات الاجتماعية والصراعات السياسية.

ولما راكمت مجموعة من النصوص تجربة لا يستهان بها في الوصف والتصنيف لمعطيات التاريخ العام للمجتمع السوسي، أقدمت نصوص أخرى على مفاهيم محورية وتطويعها في مجال التاريخ الفكري والديني السوسي؛ ومراد الكل إن ضمنيا أو بكيفية صريحة، الإسهام في تطوير فهمنا لماضي وحاضر سوس ضمن التطور التاريخي العام للبلاد.

من بين أهم هذه النصوص، نموذج نعتقد أنه يثري التاريخ الفكري والديني لسوس، وينير ما يلفه من غموض، وهو مخطوط "**نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار تذهب عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي أحمد بن محمد وولده سيدي الحسن**" لمؤلفه أبي حامد العربي المَشَرْفِي المتوفي سنة 1313هـ/1895م.

ولعل ما يدفع إلى الاهتمام بهذا الكتاب، ما يتضمنه من نصوص فريدة حول منطقة سوس، وهي نصوص قد يؤدي توظيفها إلى الإسهام في مزيد من الوضوح بخصوص الحياة الثقافية بسوس خلال الفترة الحديثة والمعاصرة.

قبل التعرض للقضايا التي يحويها هذا المصنف نرى من المفيد التعريف به وبمؤلِّفه في عجالة[1] لما لذلك من أهمية في اختبار صحة النصوص التي يوردها حول الموضوع.

[1] للمزيد من التفاصيل تنظر الدراسة والتحقيق الذي أنجزه مولاي الزهيد علوي لهذا المخطوط في إطار أطروحة لنيل الدكتوراه بكلية الآداب القنيطرة، والتي وأصدرتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ضمن منشوراتها لسنة 2020.

أولا: التعريف بالمخطوط ومؤلفه وإبراز أهميته

I. التعريف بالمخطوط

ألف المشرفي هذا الكتاب سنة 1290هـ/1873م[2] بطلب من الوزير عبد الله بن أحمد،[3] الذي كانت له محبة في الشيخ أبي علي سيدي الحسن بن أحمد بن محمد المَيْمُونِي التِّمْكدِّيشْتِي السوسي، وخدمة لمقامه.

وفي ذلك يقول المشرفي: "والباعث على تسطير هذا الدفتر بعد الاستخارة النبوية، أن محب العلماء، [...] السيد عبد الله بن أحمد، رئيس العسكر المحمدي، والجيش الأحمدي، له محبة في الجناب الطيني وخدمة للمقام الديني، مقام أبي علي سيدي الحسن بن الولي الصالح وقطب الدين الواضح أبي العباس سيدي أحمد بن محمد المَيْمُونِي ثم التِّمْكدِّيشْتِي [...] فأراد مني إظهارها صونا للمحبة، وعونا على إخلاصها، ورحمة للعامة، وشفقة على الذين يطلقون ألسنتهم في أمثاله، [...] وقد ساعدته لوفق ما طلب مؤديا للحق الذي له علي وجب، إذ لا تسعني مخالفته في مثل هذه القضية، وقدمني لذلك دون العلماء الآجلة، والبدور الأهلة الذين غص مجلسه الكريم بهم".[4]

ومن خلال عملية البحث والتحري التي قام بها الباحث طيلة اشتغاله على هذا المخطوط، توصل إلى نتيجة مفادها أن كتاب "**نزهة الأبصار**" يوجد في خمس نسخ في الأغلب وهي:

- نسخة بزاوية تِمْكدِّيشْتْ بإقليم تِيزْنِيتْ وهي النسخة الأصلية على الأرجح.
- نسخة توجد بالمكتبة الوطنية بالرباط تحت رقم: ك 579.
- نسخة توجد بخزانة المدرسة النَّحْلِيَّة بقرية مَزُّوضَة بإقليم شِيشَاوَة.
- نسخة توجد بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم: 5616.
- نسخة بمكتبة بلدية وهران بالجزائر.

[2] العربي المشرفي، "**نزهة الأبصار لذوي المعرفة والاستبصار تذهب عن المتكاسل الوسن في مناقب سيدي أحمد بن محمد وولده سيدي الحسن**" (مخطوط رقم: ك 579، بالمكتبة الوطنية بالرباط)، 14.

[3] هو من تولى إدارة وزارة الحرب (منصب العلاف الكبير) بين 1859 و1873م عند تأسيسها لأول مرة في المغرب في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان بعد هزيمة ايسلي، وهو عم الوزير والحاجب السلطاني أحمد بن موسى المعروف (بباحماد). أنظر: بهيجة سيمو، **الإصلاحات العسكرية بالمغرب 1844-1912م** (الرباط: منشورات اللجنة المغربية للتاريخ العسكري، المطبعة الملكية، 2000)، 146، مصطفى الشابي، **النخبة المخزنية في القرن 19** (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، 1995)، 36، 116، 120.

[4] المشرفي، **نزهة الأبصار**، 3.

اعتمد في هذه الدراسة على النسخة الموجودة بالمكتبة الوطنية بالرباط تحت رقم ك 579، وهي في حالة لا بأس بها، لكنها مبتورة الأول والآخر، تحتوي على 543 صفحة، مقياس 26×18 سم، وكل صفحة تتألف من 25 سطر، وكتبت هذه النسخة بخط أندلسي واضح، أسود ومحلى بالأحمر، وقد أكدت الدراسة أن هذه النسخة هي أجود النسخ وأقربها إلى الأصل، وذلك لعدة اعتبارات أهمها:

- **نسخها وشيوعها في حياة المؤلف**

رغم أن هذه النسخة غير معروف تاريخ نسخها ولا ناسخها، إلا أن مجموعة من المؤشرات تؤكد نسخها وتداولها في حياة المؤلف. ومن ذلك مجموعة من التعليقات التي كتبها ناسخها على الهوامش (خصوصا ص: 100-101)، والتي تؤكد أنها نسخت إما بخط الحسن التِّمْكدِّيشْتِي المترجم له في المخطوط، أو بخط أحد أبناءه، والتي تؤكد أيضا أنها نسخت مباشرة من النسخة الأصلية، ويؤكد ذلك المختار السوسي، حيث أشار إلى أن هذه النسخة هي التي قدمت للسدة الملوكية، وحفظت في دار المخزن بفاس قبل أن تنقل إلى مكتبة الكتاني بالخزانة العامة بالرباط.[5]

- **قدم الورق والخط**

بمقارنة نوع وحالة الورق الذي كتبت عليه هذه النسخة مع ورق النسخ الأخرى التي حصلنا عليها، يتبين أن هذه النسخة هي الأقدم، ونفس الشيء يقال أيضا عن رسوم خطها، الشيء الذي يدل على قيمتها وأهميتها.

- **قلة الأخطاء**

من مميزات هذه النسخة قلة الأخطاء، مما يدل على حرص الناسخ على تفادي الأخطاء، كما يدل على أنها منتسخة عن أصل موثوق به، ويحتمل جدا أن المؤلف اطلع عليها بنفسه. وسجل المحقق وضوح الخط، وقلة الخروم، وقلة التعليقات والاضافات والشروح على الهوامش.

II. التعريف بالمؤلف

يعرف المَشَرْفِي نفسه على أنه هو: "العربي بن عبد القادر بن علي بن مسعود بن أحمد بن أبي جلال الأصغر بن أحمد بن أبي جلال الأكبر بن عمر بن الصديق،

[5] محمد المختار السوسي، **المعسول**، الجزء السادس (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1960)، 265.

ينتهي نسبنا إلى عيسى بن إدريس".[6] وتفيد المقارنة بين مجموعة من الأخبار المتفرقة بين عدة نصوص بأن تاريخ ولادة المشرفي يرجع إلى بداية العقد الأول من القرن 13 هـ/19م.[7] وقد ازداد بقرية كرْطْ بضواحي مْعَسْكرْ.[8]

ينتمي العربي المشرفي إلى أسرة مشهورة في غرب الجزائر بنسبها وحسبها، وبأدوارها التاريخية دينيا واجتماعيا وسياسيا، فالمصادر تجمع على النسب الشريف لهذه الأسرة، وتؤكد على أنها إدريسية النسب من الفرع الحسني،[9] وأنها حصلت من سلاطين الأتراك والعلويين على ظهائر تعترف بنسبها الشريف وتبت صحته، وهو ما جعل المشرفي ينشأ في بيئة عائلية مجبولة على ترسيخ مبادئ التربية المتأصلة في أوساط الزوايا والشرفاء، وتلقين أبناءها علوم عصرها، خصوصا وأن الأسرة كانت تمتلك مكتبة خاصة.[10]

عاش المشرفي حوالي 90 سنة، قضى أكثر من نصفها بالمغرب، وأغلبها بمدينة فاس، وذلك في الفترة الممتدة من 1260هـ/1843م إلى 1313هـ/1895م، أي من مرحلة حكم السلطان عبد الرحمان بن هشام (1237هـ/1822م-1275هـ/1859م) إلى نهاية مرحلة حكم السلطان الحسن الأول (1290هـ/1873م-1311هـ/1894م)، وقد تكلف بعدة مهام وقام بعدة وظائف، مثل التدريس، ونسخ الكتب، كما كلفه السلطان بشرح رسائله إلى بعض القبائل.

وقد عرف المشرفي بعلو كعبه في ميدان التأليف، حيث تميز بغزارة مؤلفاته، وتنوع الحقول عمله المعرفية. فقد برع في نظم القصائد مدحا وهجاء،[11] وألف في أدب الرحلة في مغرب القرن التاسع عشر، وترجم لعدد وافر من أعلام التصوف والأدب والفقه، وأعيان الحكم بالجزائر والمغرب، وتميزت تآليفه التاريخية بغناها من

[6] العربي المشرفي، "**ديوان نظم فيمن أيقظ للدين جفن الوسن**"، (مخطوط، الخزانة الحسنية بالرباط، 5310)، 111أ.

[7] العباس بن إبراهيم السَّمْلالي، **الإعلام بمن حل مراكش وأَغْمَات من الأعلام**، مراجعة عبد الوهاب بن منصور، الجزء التاسع (الرباط: المطبعة الملكية، 1997)، 27. الحسن الفرقان، **أدبيات الأوبئة في مغرب القرن 19 نموذج أقوال المطاعين في الطعن والطواعين للعربي المشرفي** (الرباط: منشورات التوحيدي، 2014)، 11، 12؛ سعد الله أبو القاسم، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، الجزء الثاني (بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1990)، 175؛ المشرفي، "**ديوان نظم**"، 112أ.

[8] أبو القاسم، **أبحاث وأراء**، الجزء الثاني، 175؛ عادل نويهض، **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر** (بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، 1980)، 303.

[9] يتصل نسبها بعيسى بن إدريس الثاني، كما أن مرد جميع المشرفيين إلى جدهم سيدي علي بن مشرف، وهذا الأخير من ذرية شرفاء الأدارسة. أنظر: إدريس الفضيلي، **الدرر البهية والجواهر النبوية في الفروع الحسنية والحسينية**، الجزء الثاني (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، 1999)، 154.

[10] سعد الله أبو القاسم، **التاريخ الثقافي للجزائر**، الجزء الخامس (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998)، 391.

[11] لقبه النميشي بحطيئة زمانه. أنظر: أحمد النميشي، **تاريخ الشعر والشعراء بفاس** (فاس: 1924)، 93.

حيث المعلومات حول تاريخ المغرب والعالم الإسلامي، كما عبر من خلالها عن آرائه ومواقفه من أحداث ومستجدات عصره.

توفي العربي المشرفي سنة 1313هـ/1895م عن نحو 90 سنة، ودفن قرب ضريح الشيخ علي بن حرزهم خارج باب فتوح بفاس.[12]

III. أهمية الكتاب

تظهر أهمية الكتاب من خلال اهتمام ثلة من المؤرخين والباحثين به، وجعله مصدرا أساسيا لاستقاء مادتهم المعرفية والتاريخية وغيرها، وقد اعتمده بالدرجة الأولى وبشكل كبير الذين كتبوا في موضوعه، خاصة الجانب المتعلق بالتراجم منه، إذ جل الذين كتبوا بعده في التراجم، اعتمدوا عليه، واستفادوا منه، واتخذوه مصدرا من مصادرهم، ومن أهم الكتب التي اعتمدت عليه:

1. المعسول: الذي شرع المختار السوسي في تأليفه سنة 1355هـ/1936م، واعتمد فيه عالم سوس على كتاب "نزهة الأبصار" بشكل كبير، خصوصا عند ترجمته للحسن التِّمْكدِّشْتِي، وذكر ما حصل بينه وبين الحسن الإِرْزَاني، وذكره لتلامذة التِّمْكدِّشْتِي،[13] ولعل شهادة السوسي تدل على أحد عناصر التألق في كتاب "النزهة"، فعند إثارته لدواعي تأليف موسوعته "**المعسول**" أشار إلى أن أخاه أحمد خاطبه قائلا: "إن كنت لا بد كاتبا، فهيئ لنا كتابا عن إِلغْ وعن كل ما مر فيه من العلماء والأدباء، ليكون لنا ككتاب آل زاوية تِمْكدِّشْتْ الذي ألفه العربي المشرفي الفاسي، فكانت هذه الكلمة من الأخ هي البذرة الأولى من هذا الكتاب"،[14] ثم عاد ليذكر في الجزء السادس باقتراح أخيه عليه أن يجعل للإِلغِيِّين كتابا يضاهي به ما كتب عن آل تِمْكدِّشْتْ قائلا: "ومن هنا يعلم منزل هذا الكتاب عند الناس".[15]

2. خلال جزولة: الذي ألفه سنة 1379هـ/ 1959م، واعتمد في الجزء الثالث منه من الصفحة 205 إلى الصفحة217 على "نزهة الأبصار" في ترجمته لبعض الرجال، فقال: "وقد كنت اتصلت هناك برحلة المشرفي إلى تِمْكدِّشْتْ، فنقلت منها بعض أمور باختصار، وسأذكر هنا الرجال الذين لم نستفدهم إلا من هناك".[16]

[12] عبد السلام ابن سُودَة، **إتحاف المطالع بوفيات القرن الثالث عشر والرابع**، تحقيق محمد حجي، الجزء الأول (بيروت: دار الغرب الاسلامي، 1997)، 330؛ السملالي، **الإعلام**، الجزء التاسع، 27؛ نويهض، **معجم أعلام الجزائر**، 303.

[13] المشرفي، **نزهة الأبصار**، 261-321.

[14] محمد المختار السوسي، **المعسول**، الجزء الأول (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1960)، هـ.

[15] السوسي، **المعسول**، الجزء السادس، 321.

[16] محمد المختار السوسي، **خلال جَزُولَةَ**، الجزء (تطوان: المطبعة المهدية)، 205.

3. رجالات العلم العربي بسوس: اعتمد فيه المختار السوسي على كتاب "النزهة" للتعريف ببعض علماء سوس.[17]

4. سوس العالمة: الذي ألفه المختار السوسي سنة 1379هـ/ 1959م، عرف فيه السوسي بالكتاب، واعتبره كثير الفوائد رغم قوله عن المشرفي أنه يستطرد فيه كثيرا.[18]

5. روضة الأفنان في وفيات الأعيان: الذي ألفه محمد بن أحمد الإِكرَارِي سنة 1351هـ/ 1932 م، واعتمد فيه الإِكرَارِي في التعريف ببعض من ترجم لهم، خصوصا أحمد التِّمْكدِّشْتي وابنه الحسن.[19]

6. إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع: الذي انتهى عبد السلام بن سودة من تأليفه سنة 1370هـ/1951م. عندما لاحظ ابن سودة أنه أغفل في كتابه هذا الحديث عن علماء سوس، وأن ما ذكر منهم قلة؛ ارتأى الاعتماد في سد هذا النقص على كتاب نزهة الأبصار، فقال: "وعندما وصلت إلى هذا المقام لاحظت عدم ذكر علماء القطر السوسي الشهير بالمغرب، وأن ما ذكر منهم قلة، وهذه الوفيات عامة ليست مخصصة بمحل دون غيره، ومن حسن الصدف وقفت على كتاب نزهة الأبصار [...]، فوجدته ذكر فيه عدة تراجم لعلماء القطر السوسي، غير أنه لم يعتن بذكر سنوات الوفاة، إنما اعتنى بذكر نسبهم ووصفهم بحالتهم العلمية، ومن أجل ذلك ارتأيت أن أنقل في هذه الخاتمة لهذه المائة كل من ذكره حسب ترتيبه لا حسب الحروف الأبجدية".[20]

ثانيا: الحياة الدينية والعلمية بسوس

نهدف بدراسة هذا الجانب إلى معرفة البنية الإيديولوجية للمجتمع السوسي خلال العصر الذي عاش فيه العربي المشرفي، كما ظهرت ممارسة وتنظيرا. وتمدنا نصوص المشرفي بمادة غزيرة يمكن من خلالها رسم الخطوط العريضة للجانب الديني والثقافي لذلك العصر. فمن خلال هذه النصوص نلاحظ أن كل شيء في المغرب وفي سوس يتمحور حول الدين الإسلامي، وكل شيء مرتبط بذلك، إلا أن الصورة المستخلصة عن بيئة هذا العصر هي هيمنة الروح الصوفية والفقهية.

[17] محمد المختار السوسي، **رجالات العلم العربي في سوس**، هيأه للنشر وطبعه ابنه عبد الوافي المختار السوسي (طنجة: مؤسسة النشر والتوزيع للشمال، 1989).

[18] محمد المختار السوسي، **سوس العالمة** (المحمدية: مطبعة فضالة، 1960)، 216.

[19] محمد الإكراري، **روضة الأفنان في وفيان الأعيان**، تحقيق حمدي أنوش (أكادير: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1998)، 168، 174.

[20] ابن سودة، **إتحاف المطالع**، الجزء الأول، 285.

والمشكلة الأساسية التي يتمحور عليها التراث الذي خلفه لنا المشرفي، هي أن شيئا ما حدث في التاريخ المغربي والإسلامي عامة، جعل السير يخطئ طريقه الصحيح، والبحث عن هذا الشيء من أجل تدارك الموقف، وإيجاد الطريق الصحيح هو الذي شغل النصوص التي أمدنا بها سواء كانت تراجم أو أحداث أو مؤلفات، ومحاولة الجواب على تحديد المشكل واختيار الطريق الصواب هو الذي أدى إلى اختلاف الاتجاهات، وخلق بطبيعة الحال تيارات متنوعة، تختلف سذاجة وعمقا حسب الشخصية التي تعالج الموضوع، والكل في مجموعه يكون أزمة روحية في العصر كله، ومحاولة حل هذه الأزمة تمثلت في الحركات الصوفية والتوجهات السنية السائدة في هذا العصر، وكلها تدعوا إلى إيقاف الانحلال وتنادي بالعودة إلى الاقتداء بالسلف الصالح.

والبحث عن جذور كل هذه الظواهر يدفعنا إلى دراسة جميع العناصر المتفاعلة فيها، فمن خلال كتاب نزهة الأبصار نلاحظ أن المشرفي يؤرخ لهذا الجانب الديني والفكري، ملتزما الطريقة الحولية في ترتيب الشخصيات التي ترجم لها والأحداث التي عرضها، فهو لا يؤرخ للأفكار والاتجاهات والتيارات، وإنما يأتي ذلك عرضا، ومن هنا يظهر أنه حدث في نظره تحول في الحياة الروحية والفكرية، ورغم أنه لم يفصح عن هذا التحول، فإننا عندما ندرس المادة الفكرية والشخصيات التي استعرضها نخرج بحكم واحد، وهو أن تركيب المجتمع السوسي خاصة والمغربي عامة قائم على الأخلاق والشريعة الإسلامية، فهي التي تحدد قواعد السلوك السياسي والاجتماعي والديني فيه، وأن أي حركة لا تخضع لتوجيهها تعتبر خارجة عنه ومنحرفة عن جادة الصواب. وهذا يثبت في نفس الوقت أن العلماء والمتصوفة هم الذين يسهرون على تطبيق أوامر الدين في المجالين السياسي والروحي، مما جعل جماعة العلماء والمتصوفة في المجتمع المغربي هيئة غير محدودة السلطة، ما دامت أوامر الدين لا تنحصر في مجال سياسي فقط أو إطار روحي فحسب، فكانت مرجعا للتفسير القانوني والأخلاقي.

وخلال هذا العصر (القرن 13هـ/19م)، كما يقدم لنا المشرفي رجالاته وإنتاجاتهم، يظهر بوضوح أن العلماء والمتصوفة ظلوا في وسط المجتمع عناصر بارزة فارضين هيبتهم على الدولة عن طريق سلطتهم الروحية والعلمية، ويؤكد ذلك أن رجال السلطة كانوا يتوجهون إلى زوايا أو أضرحة شيوخ التصوف من أجل التماس البركة والعون. وبهذا قام العلماء والمتصوفة بدور هام له جوانبه الروحية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وذلك باعتبارهم النخبة التي تملك القيادة في البناء

الاجتماعي المغربي، والدليل على هذا أننا نلمس تدهورا في السلطة السياسية، ولا نلمس ضعفا في مركز قيادة العلماء بداخل المجتمع ككل خلال هذا العصر، وهذا ناشئ في أساسه من التاريخ الإسلامي الذي يعبر عن ارتباط جميع مؤسسات المجتمع فيه بالدين ارتباطا عضويا.

وهكذا كانت الحياة الفكرية بسوس في عصر المشرفي لا تختلف عما سبقه، ما دامت هذه البيئة تؤثر فيها هذه النخبة ذات الاتجاه الروحي، فكانت الشخصيات متعددة حقيقة، ولكنها من حيث التنظير والممارسة متشابهة، وهذا ما جعل تكرارها عند المشرفي اجترارا لفكرة واحدة، وهي أن العلماء هم الذين يملكون وحدهم حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن شيوخ التصوف هم الذين يملكون وحدهم حق الاصلاح الروحي للنفس البشرية الأمارة بالسوء.

وما دمنا نلاحظ هذين الجانبين في مجموع الشخصيات والأحداث التي يعرضها أمامنا المشرفي، يمكن لنا أن نقسمها إلى فئتين تدور عليهما الحياة الدينية والعلمية في سوس، وهما الفقهاء (علماء الشريعة الاسلامية)، ورجال التصوف (شيوخ الزوايا)، وعلينا الآن أن نبحث هذين الجانبين في عصر المشرفي لكي نعرف دورهما في البيئة السوسية، وبالتالي أثرهما في المجتمع السوسي.

I. الاتجاه الصوفي

التصوف من السبل الروحية الإسلامية للتقرب إلى الله، ومن هنا كان بعض الصوفية يبحثون ثلاثة عناصر هي: طبيعة الله، وطبيعة الانسان، والقيم الروحية التي تربط الانسان بالله، فهي وحدها تمكن من إدراك الذات الإلهية عن طريق الصفاء، ويمكن أن ندرج المعلومات الصوفية التي قدمها لنا المشرفي في هذه المحاور الثلاثة، وإن كانت تختلف في دلالتها في سياق كتابه نزهة الأبصار، ولكن هذا الإدراك لا يصل إليه الإنسان إلا بالتلقين الذي يتم في عملية روحية متبادلة بين الشيخ والمريد في إطار فعالية خارقة للعادة هي التي يسميها "البركة"[21] والتي قد تصبح تنبئا بالغيب وهو ما يسميه "المكاشفات"،[22] وإذا حصل للمريد هذا النوع من التلقين الروحي، عند ذلك يولد من جديد، بمعنى يولد ثانية في عالم الروح بأبعاده اللامتناهية، ومن هنا تصبح تصرفاته في عالم الواقع غير قابلة للتفسير والإدراك العقلي، ولو كانت خارجة عن قواعد السلوك الاجتماعي التي اتفق العلماء على قبولها، وتبنوا توجيهها وتقويم

[21] المشرفي، **نزهة الأبصار**، 79، 91.

[22] المشرفي، **نزهة الأبصار**، 100.

اعوجاجها، ولكنهم هنا ينجرفون مع تيار قبول الخوارق التي أصبحت في هذا العصر الذي يعيش فيه المشرفي من الوسيلة العملية للإقناع. ولعل هذه الظاهرة هي إحدى ظواهر الجمود وإحدى ملامح ضعف القاعدة الفكرية للإنسان السوسي في هذا العصر.

ولما كانت الصوفية تعتبر نفسها قائمة على التعاليم الاجتماعية والشرعية للإسلام، فقد كان عليها أن تمارس نشاطها في وسط المجتمع، لا بمعزل عنه، لكي تؤدي عمليا وظيفتها الروحية سواء من حيث التفسير أو الممارسة، فكأنها تؤدي وظيفة الطب النفسي في المجتمع الحديث.

وبذلك فالانخراط في سلك النظام الصوفي، وقبول شيخ من شيوخه يعني الارتباط به دائما بواسطة عهد ثابت ومستمر حتى إلى ما بعد الموت، ذلك أن الشيخ بالنسبة للمريد حاضر دائما، وخصوصا أثناء ممارسة الأوراد التي تلقنها منه، وباستعراض أولي لرجال التصوف الذين قدمهم لنا المشرفي في مجموع عمله كله؛ نجد أن هؤلاء كانوا يبسطون نفوذهم الروحي في كل منطقة من مناطق سوس، وأن وسائلهم في العمل الصوفي واحدة متشابهة رغم تباعد بعضهم عن بعض، مما جعل البيئة السوسية في هذا العصر كله بيئة صوفية تغلغلت في المجتمع ككل، وصارت الصورة المرسومة في ذهنية المجتمع عن الشيخ (الولي الصالح) أنه هو الشخصية القادرة على كل شيء بفعل "جذب البركة"،[23] وسلوكه في هذا الطريق الصوفي، لأنه بلغ عالم الرؤية والكشف عن الحقائق؛ من هنا على المريد أن يسلم نفسه إلى شيخه بدون أدنى تحفظ.

ولسنا الآن بصدد شرح النظريات الصوفية، وإنما الذي يهمنا فيها هو أثرها التاريخي في المجتمع السوسي، باعتبارها ظاهرة روحية في مجتمع ديني تمثلت في طرق أو طوائف عملت على احتواء المجتمع احتواء روحيا.

وبالرجوع إلى نصوص المشرفي يتضح أن الحياة الصوفية في هذا العصر والذي قبله كانت مبنية في المجتمع السوسي على نوعين من التصوف هما: تصوف العلماء، ثم تصوف الزوايا أو الرباطات.

ومن خلال الشخصيات الصوفية التي أوردها المشرفي عن هذا العصر والذي قبله، فإننا لا نجد طريقة صوفية ذات طموح سياسي، وكل ما قدمه لنا هو شخصيات

[23] المشرفي، **نزهة الأبصار**، 99.

ذات العمل الروحي الصرف، أما الزوايا سواء في المدن أو البوادي فكانت في هذا العصر ذات ولاء واضح للسلطة السياسية المركزية.[24]

ويتبين أيضا أن أهم الزوايا بسوس كما بالمغرب تمركزت بالبوادي، وارتبطت بالقبائل ودورها في ميزان القوى للسلطة المركزية، حيث تعددت الزوايا والطرق الصوفية وتفرعت، وأصبح لكل منها ما يميزها عن الأخرى، رغم اجتماعها في طريق واحد هو التصوف، وأكثر هذه الطرق انتشارا: الطريقة التيجانية، والطريقة القادرية، والطريقة الدرقاوية.[25]

ورغم تنوع المشايخ والزوايا في المجال الصوفي فإن ذلك لا يعني الاختلاف بين الطرق الصوفية، فكلها ترجع إما إلى الطريقة الشادلية أو إلى الطريقة القادرية في سلسلة سندها أو أصولها ومبادئها، وقد أكد ذلك المشرفي بقوله: "وهي أفضل الطرق إلى الله وأعظمها، كما نص عليه علماء ذلك الشأن وقالوا: أصح الطرق إلى الله وأقومها طريقة الشاذلية والطريقة القادرية وليس لهما ثلاثة".[26]

هذه صورة مختصرة عن البيئة الدينية التي كانت الظاهرة الصوفية أهم ما ميزها، تلك البيئة التي رسمت شخصية المجتمع السوسي وطبعته بروحانيتها.

II. الاتجاه الفقهي والعلمي

اهتم المشرفي فيما قدمه لنا من شخصيات علمية ونتاج فكري بإعطائنا صورة نموذجية عن الحياة العلمية والفقهية في سوس والعالم الإسلامي الذي احتك به فكريا، ولهذا ركز في كتابة بشكل كبير على هذا الجانب مما جعله مؤرخا للفكر السوسي والمغربي في إطار علاقاته مع العالم الإسلامي في هذا العصر، وعندما نأخذ مؤلف المشرفي نجده من بين أهم المؤلفات التي قدمت صورة عامة عن حصيلة الانتاج الفكري الاسلامي الذي طبع سوس علميا وروحيا، ورسم بالتالي "الذهنية السوسية" التي وجهها علماؤه خلال المرحلة التي أرخ لها المشرفي.

وإذا تركنا جانبا الشخصيات وركزنا اهتمامنا على الانتاج الفكري الذي أمدنا المشرفي بنماذج كثيرة منه؛ نجده يكون عددا مهما من المؤلفات أو المنظومات المتنوعة من حيث الموضوع الذي تعالجه، ولكنها لا تخرج عن كونها إما شروحا أو تلخيصات

[24] نموذخ ولاء زاوية تمكدشت وشيوخها للسلطان محمد بن عبد الرحمان، أنظر: المشرفي، **نزهة الأبصار**، 3-4.

[25] محمد المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد مفاخرها غير المتناهية**، تحقيق إدريس بوهْليلَة، الجزء الأول (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2005)، 49، 50.

[26] المشرفي، **نزهة الأبصار**، 262.

أو تعليقات (طرر) في العلوم الدينية واللغوية والفلسفية وغيرها (تصوف، فقه مالكي، لغة عربية وآدابها، تاريخ وفروعه، حديث وعلومه، وعقائد وعلم الكلام، ومنطق، ورحلات، وتفسير، وقراءات، وأصول التشريع، وتوقيت وفلك، ثم طب)، مع سيطرة الانتاج الصوفي والفقهي والتاريخي والأدبي على غيرها من الموضوعات.

وإذا تتبعنا هذا الإنتاج من الناحية المكانية نجده يرتبط بقطبين علميين داخل المغرب هما فاس وسوس، فالمنطقتان فعلا تمثلان المكان الرئيسي للعطاء الفكري بالمغرب، وعليهما كانت تدور الحياة العلمية، رغم أن هذا لا يعني التقليل من أهمية المراكز العلمية الأخرى، كمراكش وسلا ومكناس وتطوان وتافيلالت، وغيرها من المراكز الثقافية الحضرية والبدوية.

والتراث الفكري الذي خلفته لنا البيئة السوسية في هذا العصر، يصور لنا سيادة مناخ فكري يلاحظ عليه سمة واضحة، وهي هيمنة التفكير الصوفي والفقهي المعتمد في منهجه على اجترار النظريات السابقة، مما جعله يقتصر على الشروح والتعليقات، وهذه الظاهرة طبعت الانتاج الفكري السوسي منذ العصر المريني، وإذا ركزنا على نصوص المشرفي في كتابه؛ نجدها تقدم لنا وصفا للمجتمع العلمي والديني في سوس، خلال عصر يعد في تاريخ العالم الاسلامي عصر جمود وانحطاط فكري.[27]

ومن خلال أوصاف العلماء ونشاطهم العلمي نستشف الروح الفكرية السائدة في هذا العصر، فالمشرفي يصف عبد الرحمان بن عمر الجزولي البَعْقِيلِي بأن "له ذكاء وفطنة نافذة، وبرع في عدة فنون، من نحو، ولغة، وتصريف، وحساب، وشعر، ونجوم"،[28] ويصف محمد بن امبارك السوسي التِّيُّوتِي، فيقول: "شارك في عدة فنون، من فقه، وعربية، وكلام، ومنطق، وحساب، وفرائض، وأصول، وحديث، وقراءات"،[29] ويقول عن أبي عبد الله سيدي المبارك بن أحمد النَّظيفي: "فاق أهل عصره في البراعة واليراعة، إمام الحكام ورأسهم في النوازل والأحكام، مدرس مشارك، نصب عينيه ما في المدارك، معيار العلوم، يستخرج النصوص من المنطوق والمفهوم"،[30] وقال عن أبي العباس أحمد بن عبد الرحمان بن عبد الله التِّهالي السوسي الإِيسِّي: "كان فرضيا موثقا، انتشرت وثائقه، واشتهرت في الناس حقائقه، كانت همته مصروفة في النوازل، ناضل في ميدانها كل منازل، وكانت تُفاكهُهُ البراعة، فيستعمل فيها اليراعة، له

[27] نيقولا زيادة، **الفكر العربي في مائة سنة** (بيروت: منشورات الجامعة الأمريكية، 1967)، 1-23.

[28] المشرفي، **نزهة الأبصار**، 350.

[29] المشرفي، **نزهة الأبصار**، 353.

[30] المشرفي، **نزهة الأبصار**، 203.